**المحاضرة الرابعة:**

**الأدب والدراسات البينية**

**د/ سامية بن دريس**

**مدخـــــــل:**

أفضى التراكم المعرفي الهائل الذي عرفه المنجز الإنساني إلى بروز ظاهرة التخصص في شتى العلوم، بل إلى التخصص الدقيق والتجزيء الذري للمعرفة الإنسانية، وانفصال مجالاتها واستقلالها بعضها عن بعض.

هذا التفكك والانفصال خلق حواجز  بين العلوم، وغربة بين المشتغلين بها سواء في مجال العلوم البحتة أو على مستوى العلوم الإنسانية مما أدى إلى انغلاق التخصصات وفشل المشاريع البحثية الضيقة.

لذلك ارتفعت أصوات علماء وباحثين تدعو إلى ضرورة مراجعة المنجز المعرفي وانفتاح حقوله وتفاعلها بسبب ما تستدعيه الحاجة المعرفية من حتميات، تدعو إلى التحاور والمشاركة، ذلك أن الإنسان جوهر وكل مترابط غير قابل للتجزئة. ومن ثمة برزت الحاجة إلى منهج متكامل يمكن بواسطته فتح آفاق واسعة أمام البحث.

**أولا: النشأة والمفهوم**:

من هذه الخلفية الفكرية بدأ الحديث عن الحاجة إلى الدراسات البينية (Interdiscipliranirism) أو (نظرية البين بين). هذا وتعد الدراسات البينية من أهم الاتجاهات البحثية الحديثة والمعاصرة سواء في ميدان الأدب أو العلوم الاجتماعية أو الانسانية أو العلوم البحتة. ويمكن إدراج بعض الأسباب التي استدعت هذا الانفتاح فيما يلي:

\_ كثافة المعارف.

\_ انفتاح الحقول المعرفية على بعضها.

\_ الحاجة إلى منهج متكامل.

\_ التفاعل بين المجالات الأكاديمية العامة للمجتمع.

\_ نقل المعرفة من حالتها الأكاديمية إلى الجمهور العام.

\_ المعرفة الإنسانية ذات مصادر متعددة المجالات والتخصصات.

لكن هذا لا يعني أن الممارسة البينية وليدة العصر الحديث، بل إن الواقع المعرفي يكشف عن تغلغلها في ثنايا المعرفة الإنسانية منذ القديم. ففي الثقافة العربية الإسلامية تجسدت البينية من خلال الحوار بين عدة ميادين كالمنطق والرياضيات وأصول النحو وأصول الفقه.

أما في العصر الحديث " فيمكن أن نعد الوعي الرومنسي عامة والفكر الألماني خاصة نقطة البداية في هذا الباب"[[1]](#footnote-2). ويعزو الباحث صالح بن الهادي رمضان أن التفكير النظري البيني يعود إلى مقولة "الداخل " و" الخارج" أو الذات والموضوع التي وسمت التفكير الرومنسي، منذ منتصف القرن التاسع عشر، مستندا إلى مقولة الشاعر الألماني "جوتة"Goethe الذي رأى أن ثنائية الداخل والخارج ماهي إلا ثنائية عدمية، لأنها لا تعبر عن حقيقة الظاهرة الفكرية، ذلك أنّ" التفكير الداخلي يمكن أن يتحول إلى إحساس خارجي أو إلى عمل خارجي والعكس بالعكس"[[2]](#footnote-3). وجاء هايدغر ليعمق هذا التفكير منكرا فكرة الانفصال بين الذات والموضوع، إذ عدّ أنّ الوجود الحقيقي هو "البين بين"، وأنّ مكونات العالم جميعها منفتحة بعضها على البعض الآخر"[[3]](#footnote-4). أما سيجموند فرويد فقد أكد على هذا التلاحم من خلال بلورة مفهومي "الإسقاط والاستبطان، إذ جعل الإسقاط نقلا لما في الداخل إلى الخارج والاستبطان نقلا لما في الخارج إلى الداخل"[[4]](#footnote-5).

وقد أفضت هذه الرؤى والأفكار إلى بروز المفهوم الجنيسي(Générique ) على مستوى تاريخ الأفكار إلى الدعوة إلى ضرورة العناية "بالغيرية" وإلى تقديم النظرة العلائقية على النظرة الجوهرانية"[[5]](#footnote-6)، من مبدأ أنه لا لا يوجد فكر إلا في علاقة بفكر آخر"[[6]](#footnote-7). وقد لمسنا هذا التوجه أو على الأقل الإرهاصات الأولى له في المحاضرة السابقة عند تتبعنا لعلاقة الأدب بالفلسفة والعلم، بل ولعلاقة الأدب بالدرس النقدي وأثر الحداثة واللسانيات في تحولاته، حيث تعد اللغة قاسما مشتركا بين هذه الميادين، لأنها الوسيط بين الذات المدركة والعالم الخارجي، الأمر الذي يجعلها مجالا بينيا بين عالمي الذات والموضوع. مع العلم أنّ الاهتمام الرئيس للبحوث البينية يدور حول فكرة التكامل(Intégration) التي تعد " بمثابة عملية يمكن من خلالها الربط بين علمين أو أكثر من خلال الاستفادة من النظريات والأفكار والمعطيات والمعلومات والمفاهيم والمناهج والأدوات داخل كل علم من العلوم التي يستعان بها في الدراسة"7.

والبينية ليست مجالا خاصا بالدراسات الأدبية وحدها، بل امتدت لكل الحقول المعرفية، بهدف صياغة مجالات بحثية جديدة.

أما عن ظهور مصطلح البينية، فقد استعمله دافيد سيلز(D.Silles) في التقرير السنوي السادس لمجلس بحوث العلوم الاجتماعية(1929\_1930) عندما أشار إلى أنه " سوف يستمر المجلس في السير اتجاه هذه القضايا **البينية**"8. كما نشر بيونس جيبلون(B.Giblons ) وآخرون سنة 1994 ورقة بحثية تحت عنوان:" الإنتاج الجديد للمعرفة" 9(The new protection of knowledge) تشرح شكلا جديدا للمعرفة بالاعتماد على البحوث البينية. وفي السياق ذاته وظف لويس ويرث المصطلح ذاته بالقول بأنّ" همّ البحوث البينية دمج الأفكار والرؤى عن المشكلة محل الاهتمام المشترك للفرعين (A.B) من أجل الوصول إلى فهم أكثر شمولية وحل عملي"10، مع ضرورة التفريق بين مصطلحي Multidisciplinary وInterdsciplinar، ذلك أن الأول لا يهدف إلى حل المشكلات، بل يركزعلى دراسة موضوع محدد بإسهام عديد التخصصات. أما الثاني فيهدف إلى الإجابة عن سؤال أو مشكلة، من خلال نمط من البحوث يعتمد على تبني مفهوم التكامل بين مختلف فروع المعرفة الإنسانية.

وقد ذهب روبرت بلانشيه إلى القول بأن اختلاك العلوم بعضها ببعض، وأصبح اليوم هو القاعدة قريبا ، وأخذت هذه العلوم في التزايد والامتزاج فيما بينها وأصبحت حدودها متحركة وغير ثابتة، وتوحدت في داخلها المعارف الأكثر تباعدا والأكثر اختلافا كالسبرنطيقا (Cybernetics)**\*** التي تقوم على التعاون بين المنطق ثنائي القيم ونظرية الدوائر الكهربائية وفيزيولوجيا الأعصاب، وتنشأ وحدة العلوم استنادا إلى تلك العلاقات العديدة الموجودة في نسيج الأجزاء المختلفة للمعرفة"11.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

9. هاني خميس أحمد عبده: البحوث البينية وتقدم المجتمعات، ص158.

10. المرجع نفسه، ص 159.

\*السبرنطيقا: علم الآلات والتحكم الذاتي، إذ يجمع بين ما هو إنساني وما هو آلي، ويحيل على التحكم والبرمجة الآلية والتقنية.

11. صالح بن عبد الهادي رمضان، المرجع السابق، ص 7، نقلا عن كتاب "نظرية المعرفة العلمية" لحسن عبد الحميد، دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 141.

لهذا فالدراسات البينية تسعى إلى إيجاد منهج تلملم من خلاله المعارف المتشظية، بالبحث عن الصلات التي تصل العلوم ببعضها أو بالجمع بين التيارات الفكرية في مناخ من المناخات الثقافية. فالحقول المعرفية تتصارع وتتنازع المواقع والموضوعات، ويسعى كل علم إلى الهيمنة على غيره وافتكاك مجال من مجالاته"12 ويجسد هذا الصراع التنازع حول منطقة بينية تتلاقى عندها مختلف التخصصات. غير أنه يجدر بنا التنبيه إلى أن هذا النوع من الدراسات لم يحظ بالإجماع؛إذ أن فكرة البينية لم تلق الاستحسان والقبول لدى جميع الفاعلين في الحقل المعرفي، بل هناك من المتمسكين بحدزد العلوم التقليدية وباختلاف التخصصات بعضها عن بعض، وبين الداعين إلى ضرورة إعادة النظر في المنظومة المعرفية وإلى إعادة تعريف العلم وبيان صلته بالمجالات المجاورة. ويرى صالح بن عبد الهادي رمضان أن هذا التباين يعبر عن اختلاف بين رؤيتين للعلم أو بين عصرين معرفيين؛ رؤية الذين" يقدرون للعلم حقيقة واحدة دائمة غير قابلة للتغيير، وأنه خطاب مفارق للواقع وثابت فوق كل حركة تاريخية"13.أما الحجج التي ساقوها لدعم هذا التوجه فمؤداها أنّ المنهج العلمي يعتمد على الصرامة، الأمر الذي يستدعي التوغل في التخصص الدقيق، مع تحديد المفاهيم والمصطلحات الخاصة بكل علم. ومرجع هذه الرؤية هو النظرة الثنائية للمعرفة العلمية المنبنية على مفهوم المركز والهامشأو الجوهر والعرض.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

12. صالح بن عبد الهادي رمضان: التفكير البيني، ص 07.

13. المرجع نفسه، ص06.

**ثانيا: مجالات الدراسات البينية**:

لا يمكن حصر المجالات التي تعنى بها الدراسات البنية، لأنها تبحث في الأرضية

المشتركة بين مختلف العلوم وتفاعلاتها، والتقائها، ويمكن أن ندرج على سبيل الذكر فقط بعض الميادين التي تتشارك فيها العلوم وتتعاون، وهي عبارة عن مشاريع بحثية في الأفق:

\_ الرياضيات وعلم الجمال.

\_ الأدب والعلم.

\_ العلوم الطبية وعلوم التواصل.

\_ الصناعة الطبية والبلاغة (التداولية).

\_ اللسانيات الحاسوبية وتعليمية اللغات.

\_ الخطاب الأدبي والخكاب القانوني.

\_ الأدب وعلم الإناسة.

\_ الأدب وعلم الإناسة.

\_ التاريخ وعلم الحفريات.

\_ النقد الأدبي والإحصاء.

\_ الرواية والتاريخ.

\_ الأدب والجغرافيا.

**ثالثا: أعلام الدراسات البينية:**

ونذكر منهم:

\_ الجاحظ.

\_ عبد القاهر الجرجاني.

\_ ابن خلدون.

\_ غاستون باشلار.

\_ إدغار موران.

\_ بول ريكور

\_ بيار بورديو.

1. . صالح بن الهادي رمضان: التفكير البيني: أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة العربية.ص 4 [↑](#footnote-ref-2)
2. . المرجع نفسه، ص نفسها. [↑](#footnote-ref-3)
3. . المرجع نفسه ص5. [↑](#footnote-ref-4)
4. . 4. صالح بن عبد الهادي رمضان التفكير البيني، ص 5

   5. المرجع نفسه، ص نفسها.

   6. المرجع نفسه

   7. هاني خميس أحمد عبده: البحوث البينية وتقدم المجتمعات الإنسانية خلال الألفية الجديدة: تجارب علمية وخيارات مستقبلية،مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، ص 157.

   8 المرجع نفسه، ص 158. [↑](#footnote-ref-5)
5. [↑](#footnote-ref-6)
6. [↑](#footnote-ref-7)